

## أنماط صور العنف في صعيد مصر من خلال رواية "قطار الصعيد" للروائي "يوسف القعيد"

هاشم محمد هاشم\*

مريم جلائي (الكاتبة المسؤولة)\*\*

### الملخص

ارتبطت الرواية منذ ظهورها كجنس أدبي بالحياة وتطورها وواقعها اليومي، ولقد أتاحت سمات الرواية ومميزاتها للروائي أن يصور الحياة اليومية ويضع يده على أهم قضايا المجتمع ومحاوله توصيفها من خلال عمله الإبداعي. وفي هذه الدراسة حاولنا بالمنهج الوصفي - التحليلي أن نكتشف كيف استطاع الروائي المصري "يوسف القعيد" الكشف عن أهم صور العنف الذي ظهر وتجلّى في "صعيد" مصر في فترة السبعينيات من خلال روايته "قطار الصعيد"، والسبب الرئيس في اختيار هذا الموضوع هو أن ظاهرة العنف في صعيد مصر ارتبطت بالتحول الفكري والثقافي الذي شهدته فترة السبعينيات في مصر والذي وجد في الصعيد التربة الصالحة للنمو والتوغل مما جعل من ظاهرة العنف بصورها المختلفة قرينة تقترن بصعيد مصر وأهله وهذا الأمر هو ما ظهر بوضوح شديد في رؤية وكتابة يوسف القعيد لروايته "قطار الصعيد". ومن أهم ما توصل إليه البحث أنه لقد تمثلت صور العنف داخل الرواية في ثلاث صور أساسية وهي الإرهاب، والثأر، والقتلة الطائفية وهي التي استطاع "يوسف القعيد" توظيفها داخل الرواية وتوصيفها وعرض أسبابها ونتائجها وذلك بشكل أدبي منمق. ويرى الكاتب أن السبب الأساس وراء هذه الظواهر هو تعامل الدولة مع القضية والسبب الثاني هو انتشار التطرف الديني المرتبط بالفكر الإسلامي المتشدد الذي انتشر في تلك المرحلة في صعيد مصر.

الكلمات الدلالية: الرواية المصرية، يوسف القعيد، رواية "قطار الصعيد"، العنف، صعيد مصر.

\*. أستاذ مشاركة اللغة الفارسية وآدابها بجامعة أسيوط، أسيوط، مصر

hashemelkomey@art.aun.edu.eg

\*\* أستاذة مشاركة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كاشان، إصفهان، إيران

maryamjalaei@gmail.com

تاريخ القبول: ١٤٤٢/٠٨/٢١ ق

تاريخ الاستلام: ١٤٤١/١٠/١٣ ق

## المقدمة

حاز صعيد مصر على اهتمام عدد كبير من الأدباء والكتّاب المصريين والأجانب؛ فعلى سبيل المثال هناك عدد كبير من الروايات والأعمال الشعرية التي تدور حول صعيد مصر وثقافته بل إن هناك كتّاباً وشعراء كان كل مشروعهم الإبداعي حول الصعيد وثقافته ولنجاحها نجد بعضها قد تحول إلى أعمال سينمائية وتلفزيونية حازت على نجاح منقطع النظير؛ منها على سبيل المثال فيلم "الطوق والأسورة" المأخوذ من رواية "الطوق والأسورة" للروائي "يحيى الطاهر عبدالله"، ومسلسل "درب الطيب" المأخوذ من رواية "سيرة الشيخ نور الدين" للدكتور "أحمد شمس الدين حجاجي"، ومسلسل "خالتي صفية والدير" المأخوذ من رواية "خالتي صفية والدير" للروائي "بهاء طاهر"، وغيرها من الأعمال الأخرى.

ولقد نال الصعيد أيضاً اهتمام عدد كبير من الرحالة؛ سواء الرحالة المسلمون ومنهم الشاعر "ناصر خسرو" والرحالة "ابن بطوطة" و"ابن جبير" أو رحالة الغرب والمستشرقون ومنهم على سبيل المثال الإيطالي "ليو الإفريقي" والألماني الأب "فانزليب"، والرحالة الفرنسي "جرانجيه"، والرحالة الفرنسي "لوكا" وغيرهم، وذلك لما يتميز به صعيد مصر من سمات خاصة سواء كانت جغرافية أو تاريخية أو أثرية أو ثقافية جعلت منه محط اهتمامهم، وعلى الرغم من ذلك إلا أننا نجد أن الصعيد يعد من المناطق النائية والمهمشة في مصر حيث يحوى أكبر نسبة بطالة وأكبر نسبة فقر وأكبر نسبة جهل وأكبر نسبة أمراض بأنواعها.

إن "يوسف القعيد" يعي جيداً خصوصية الصعيد ومكانته وسماته التي يتميز بها سواء كانت سمات مادية أو معنوية، وحاول برؤيته الأدبية أن يسلط الضوء على خصوصية الصعيد في أكثر من موضع في روايته ونلاحظ أنه يدرك جيداً خصوصية الصعيد ومن ثم فهو من خلال هذا الإدراك يحاول أن يضع يده على قضايا ومشكلات الصعيد برؤيته الأدبية من خلال سرده الروائي في روايته.

يوسف القعيد قصاص مصري ولد في محافظة البحيرة، اهتم بالتعبير عن البيئة القروية وما يتصل به من قضايا وعُرف بنبرته السياسية الناقدة والتي كانت سبباً في

تعرض بعض أعماله للمصادرة. يعتبر يوسف القعيد من رواد الرواية فى مرحلة ما بعد نجيب محفوظ الذى ربطته به علاقة متينة، حصل على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب سنة ٢٠٠٨م، وحازت روايته "الحرب فى بر مصر" المرتبة الرابعة ضمن أفضل مائة رواية عربية، وكان من ضمن النواب المعينين فى البرلمان يوم ٣١ ديسمبر ٢٠١٥م، من قبل الرئيس عبد الفتاح السيسى.

ومن أهم أعماله الروائية "البيات الشتوى"، "الحداد"، "الحرب فى بر مصر"، "القلوب البيضاء"، "وجع البعاد"، "بلد المحبوب"، "لبن العصفور"، "أربع وعشرون ساعة فقط"، "أخبار عزبة المنيسى"، ورواية "قطار الصعيد" (موضع دراستنا) كما له أعمال قصصية وعدد من المؤلفات الأخرى مثل أحاديث أدبية.

أما رواية "قطار الصعيد" فهى تُعد من أهم روايات "يوسف القعيد" فى مشروعه الإبداعى، ولقد نشرت الرواية فى مصر بطبعتها الأولى عام ٢٠٠٤م ضمن منشورات دار نشر "الشروق"، وأعيدت طباعتها عدة مرات أخرى، ومن تلك الطباعات المتعددة للرواية طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب التى نشرت ضمن منشورات مشروع "القراءة للجميع" بمشاركة "دار الشروق" عام ٢٠٠٩م - وهى النسخة التى سوف تعتمد عليها الدراسة - وتقع الرواية فى ٢٢٤ صفحة. ولقد قسمت الرواية إلى ١٠ عناوين وهى المهمة، السفر، الأسايطة، البدارى، المقهى، الأقصر، السلاح، العرض، عنزة، الحُط، مع إضافة نص افتتاحى لكل قسم من الأقسام العشرة وغالباً يكون هذا النص عبارة عن مقولة منسوبة لأحد علماء ومشاهير الإسلام فنجده على سبيل المثال فى العنوان السادس الذى جاء تحت عنوان "الأقصر" يقتبس قولاً لـ "ياقوت الحموى" حيث يقول «تقع على شاطئى شرقى النيل بالصعيد الأعلى، فوق قوص، وإنها أزلية قديمة ذات قصور، ولذلك سميت الأقصر كأنها جمع قصر». (القعيد، ٢٠٠٩: ٨٣) وفى أغلب العناوين كان "يوسف القعيد" يلحق عناوينه بأحد نصوص الغناء الفلكلورى لإحدى أشهر الأغاني المرتبطة بالصعيد والقطارات، فمثلاً فى العنوان الثالث جاء بعنوان "الأسايطة" والذى تدور أحداثه حول أهل أسيوط وأوضاعهم عند حضور الصحفى لأسيوط وجاء النص المرافق له كالتالى:

قلبي عشق بنت ناسها كثير فى إسنا  
 الخال من أسيوط لكن العم من إسنا  
 والخال على الخد يشغلنا ويهوسنا  
 يارب صبر قلب الغرام... أضناه

وقوى همه رجالنا ودخلنا باسنا (المصدر نفسه: ٣٢)

أما عن أحداث رواية "قطار الصعيد" فهي تدور حول صحفى يسافر من "القاهرة" إلى صعيد مصر وتحديداً إلى محافظة "أسيوط" وذلك للتحقيق ولتغطية خبر صحفى عن حادثة قتل، وأثناء رحلة سفره إلى الصعيد يشاهد الصحفى أوضاع الصعيد ومشاكله وقضايا المستعصية سواء كانت مشاكل أمنية، أم سياسية، أم اقتصادية، أم اجتماعية، ولم يتوقف الصحفى على تغطية حادث القتل الذى يعد هو الخط الرابط بين الحكايات كلها وهو الصورة غير المباشرة لأوضاع الصعيد ومشكلاته، فقد سافر جنوب محافظة "أسيوط" تحديداً إلى محافظة "قنا" ومدينة "الأقصر" ليكتشف الصعيد الحقيقى أو ما يطلقون عليه اسم "الصعيد الجوانى"، ثم عاد مرة أخرى إلى محافظة "أسيوط" ومنها يعود مرة أخرى إلى القاهرة.

ونلاحظ أن الرواية تضم بداخلها عدداً من الحكايات مثل حكاية "الصول بدير" وحكاية "الخط" وحكاية "عنتر كامل مصطفى" وحكاية "العسكرى عرابى" التى تتلاحم فيما بينها لتكشف لنا عن الصورة الحقيقية والصادقة للصعيد، وكان القطار هو الوسيلة الرئيسية التى يتنقل بها الصحفى من محافظات الصعيد ومدنها وكذلك هو الوسيلة السردية التى ينتقل من خلالها "يوسف القعيد" لسرد وتوصيف حكايات الصعيد التى من خلالها يبين أهم قضايا الصعيد ومشكلاته والتى حاول "يوسف القعيد" توصيفها وتشريحها داخل روايته بشيء من الحيادية والصدق بعيداً عن التجميل والتزييف لبعض الحقائق وإن كانت هذه الحقائق فى بعضها يدين سياسة الحكومات المتتالية فى تهيمش الصعيد مما أدى إلى تراكم بعض مشكلاته مثل الإرهاب والبطالة والجهل والفقر، وبعضها الآخر يدين الموروث والثقافة الصعيدية التى ساعدت على ترسيخ بعض مشكلات الصعيد مثل الثأر.

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مدى حجم العنف في صعيد مصر وعوامل انتشاره وكذلك تحديد أنماط وصور العنف في صعيد مصر في السبعينات من خلال هذه الرواية والتي تمثلت في الإرهاب والثأر والفتنة الطائفية، وجعلها أرضية خصبة لشتى الدراسات الأدبية في ضوء القضايا الاجتماعية، ولنجاعة هذه الدراسة وضمناً لحسن سيرها، اعتمد البحث على استثمار آليات المنهج الوصفي - التحليلي.

### أسئلة البحث وفرضياته

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن السؤالين التاليين؛

أولاً: ما أنماط العنف في صعيد مصر في السبعينات من خلال رواية "قطار صعيد"؟

ثانياً: ما الأسباب الكامنة وراء انتشار العنف في صعيد مصر من خلال رواية "قطار صعيد"؟

أما فرضيتا البحث فهما؛

أولاً: إن ظاهرة العنف في الصعيد برزت في أشكال متنوعة من أبرزها الإرهاب

والثأر.

ثانياً: قد تكمن وراء العنف الشائع في الصعيد إهمال هذه المنطقة من قبل الحكومة

وكذلك انتشار الأسلحة بشكل واسع.

### خلفية البحث

أما بالنسبة للدراسات السابقة لدراسنا هذه فهناك عدد من البحوث والدراسات

التي تناولت روايات يوسف القعيد من منظور ما، من أبرز هذه الدراسات؛ دراسة

تحت عنوان «الميتاقص تجريباً روائياً - قراءة في أعمال الروائي المصري يوسف

القعيد: الحرب في برّ مصر ويحدث في مصر الآن وثلاثية شكواوى المصري الفصيح»

للباحثة الشوابكة (٢٠١٣)؛ قد توصلت إلى وجود تقنيات تجريبية عدّة في نصوص

الروايات القعيدية - إن جاز التعبير - تتذرّع بالتخييل والتشكيل، في أثناء تشكّل

النّص نفسه من مثل: السرد البوليفوني المتعدد الأصوات، وتوظيف لعبة المؤلّف المؤلّف

في النزاع بين النّص والقص، واستدعاء المسرود له بوصفه قارئاً منتجاً مشاركاً في

إنشاء النّص وتشكيله، واستباق النقد، وتشظي المحكيات، وتقطيع السرد، ومدّ خطوط

التلاقح بين الواقع وعالم التخيل بوصف النص عالماً ورقياً افتراضياً مستقلاً، موازياً للواقع، له صوته الخاص، وطابعه السردي المميز. ودراسة أخرى معنونة بـ «بررسی موتیف "ارض" در رمان "الحرب في بر مصر" از يوسف القعيد» لحسينى أجداد ولدشاد (١٣٩٦) وقد سعت هذه الدراسة إلى كشف الدلالات والخصائص الأسلوبية التي خلقت هذه التقنية في النص. وقد تبين من خلالها أن الروائي وظّف هذه التقنية على شكل متناغم بسائر المكونات السردية خاصة الأفكار التي ينشرها الرواة في النص كما تساهم في تشكيل الأسلوب الروائي القعيدى. وبخصوص الدراسات التي تتمحور حول ظاهرة العنف في الروايات العربية يمكن الإشارة إلى «صور العنف في الرواية الجزائرية المعاصرة» للباحثة العنزى (٢٠١٠) التي تناولت فيها ظاهرة العنف السياسى فى ١١ رواية من الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة العربية. ويمكننا استخلاص نتائج الدراسة بأن للعنف فى الروايات المدروسة تجليات عديدة، بدأت من أبسط الأشياء حتى أكبرها، مشكلة لوحة متعددة الأطراف، لوحة تصور مأساة الإنسان الجزائرى، وأثر الإرهاب عليه، فماتت وتعطلت لغة الحياة الطبيعية لتحل محلها لغة الموت والفناء، لغة لا تحمل من المعانى الإنسانية سوى الخوف والحذر وموت القيم الجميلة فى فضاء نصى شاحب رمادى كئيب. وقد برهن ذلك على مقدرة الكاتب الجزائرى على رسم صورة كاريكاتورية ساخرة من الواقع من خلال توظيف أشياء العالم الخارجى بطريقة مثيرة ومدهشة تجعل القارئ يتماهى مع النصوص ليدين العنف بكل صورته وأشكاله. ودراسة أخرى للباحثة نسيمة (٢٠١٢) عنوانها «صور العنف السياسى فى الرواية الجزائرية المعاصرة، "متهات ليل الفتنة لـ أحمدية عياشى و"دم الغزال" لـ مرزاق بقطاش "أمودجاً» وقد اختار البحث فترة العشريّة السّوداء باعتبارها المرحلة التي شهدت العنف السياسى بمجدة أكبر، والملاحظ من قراءتها لنصوص الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية أنها سايرت التحوّلات الحاصلة فى المجتمع الجزائرى، ممّا جعل الاتجاه الواقعى يطغى عليها، فكانت لسان شعبها ومرآة عاكسة لنقض حياته اليومية، وهذا ما جعلها لا تختلف عن سابقتها التي سايرت مرحلة الاستقلال، كما عملت

على تعرية الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، كاشفة الستار عن العنف والظلم والقهر الذي عاناه المواطن الجزائري. أما حسن وستار (٢٠١٦) في دراستهما «أشكال العنف وصوره في أدب نوال السعداوي» فقد تناولتا أنماط العنف ضد المرأة المتمثلة في العذرية، وعدم مساواة الحقوق بين المرأة والرجل، وقضية الشرف وزواج القاصرات. والدراسة الأخرى تحت عنوان «تجليات العنف في رواية "سيدة المقام" لواسيني الأعرج، دراسة ظاهرية موضوعاتية» للباحثة زحاف (٢٠١٦) إذ وصلت فيها إلى أن الرواية موضوع الدراسة كانت نتاجاً للعنف وانتصر الروائي لواقعية الفن دون السقوط في واقعية الواقع. وقام عبدى (٢٠١٩) في بحث معنون بـ «دراسة صور العنف السياسي في روايات نجيب الكيلاني رواية ليالي تركستان نموذجاً» بتوضيح العنف السياسي والمفاهيم الأخرى مثل الاغتيالات وعمليات الإعدام والاعتقالات وتبينها في رواية "ليالي تركستان". وأشارت أهم النتائج إلى أن هذه المفاهيم قد استُخدمت في احتلال الأرض وقمع المشاعر الدينية وتحويل المساجد إلى مجالس المجون والفسق ومشاركة النساء في تحرير أرضها وتضامن الدول المحتلة منها الصين وروسيا القيصريّة لقمع المسلمين وقتل المثقفين بيد الصينيين؛ لأنهم يعلمون جيداً أن هؤلاء المثقفين هم دعاة التحرير وتغيير طوبوغرافيا وإثنوغرافيا للبلاد.

ولا يفوتنا الذكر إن رواية "قطار صعيد" ترجمتها إلى الفارسية الباحثة نسيم فرهنك (١٣٩٣ش) ضمن رسالة ماجستير غير منشورة في جامعة آزاد بطهران.

### مفاهيم الدراسة

فيما يلي سنتحدث بشيء من التفصيل عن المفهومين الأساسيين للدراسة ألا وهما: العنف وصعيد مصر.

### أ. العنف

إن العنف ظاهرة نفسية منتشرة في أرجاء المعمورة بأنواعه المتعددة، ويمكن تعريف العنف بأنه «خطاب أو فعل مؤذٍ أو مدمرٍ يقوم به الفرد أو جماعة ضد أخرى» (ويتمر، ٢٠٠٧: ١١) وهذا السلوك المؤذى قد يكون جسدياً أو نفسياً أو لفظياً وطبيعي أن

له آثارا مدمرة في المجتمع الإنساني لأنه «سلوك بعيد عن التحضر والتمدن تُستثمر فيه الدوافع، والطاقات العدوانية استثماراً صريحاً بدائياً؛ كالضرب والتقتيل للأفراد والتكسير والتدمير للممتلكات، واستخدام القوة لإكراه الطرف المقابل وقهره، ويمكن أن يكون العنف فردياً كما يمكن أن يكون جماعياً.» (طه وآخرون، ١٩٩٣: ٥١) كما قبلنا إن العنف نطاقه واسع جداً قد يصدر عن طرفٍ فرداً أو جماعة أو طبقة اجتماعية أو دولة بهدف استغلال أو إخضاع طرفٍ آخر في إطار علاقة غير متكافئة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً مما يتسبب في إحداث أضرار مادية أو معنوية أو نفسية لفردٍ أو جماعة، أو طبقة اجتماعية أو دولة أخرى. (عزالدين، ٢٠١٠: ١٣٩) وتدلل كل هذه التعاريف على أن العنف يدل على الشدة والحدة والتصرف الغليظ الخالي من الرأفة بغية السيطرة على الآخر بالقوة وإلحاق الأذى.

#### ب. صعيد مصر

أما صعيد مصر ويسمى بالوجه القبلي (الجنوبي) فهو عبارة عن منطقة تمثل الجنوب الشرقي من مصر أو الجزء العلوي من أراضي نهر النيل في مصر. تمتد هذه المنطقة من الجيزة شمالاً حتى أسوان جنوباً وإلى الحدود مع السودان وشرقاً بمحاذاة البحر الأحمر، وتمثل الجزء الأسفل من خريطة مصر. وفي اللغة العربية الصَّعيدُ هو المرتفعُ من الأرض، ومنه اشتق اسم صعيد مصر. وهذه المنطقة تعدّ من أقدم الحضارات العالمية؛ حيث في بداية رحلة الشخصية الرئيسية في الرواية "الصحفي" للصعيد جاء على لسانه في الرواية قوله «... ها هو الصعيد أمامي. أول أرض في الكون، كون العالم البعيد، انحسر عنها الماء الأول. الماء الذي رأى سيدنا نوح عليه السلام وملكه. ثم رأى أسراب الطيور وقطعان الحيوان. من كل نوع اثنان، ذكر وأنثى، إنها الأرض الأولى التي ارتفعت من قلب الماء بعد أن انحسر الطوفان عنها، ولكن سفينة نوح لم ترس على هذا البر...» (القعيد، ٢٠٠٩: ٢٤) وكذلك استمد "يوسف القعيد" في تناصات عناوين فصول الرواية قول بعض مشاهير التاريخ الإسلامي عن الصعيد ومنهم قول "أبواسحاق البيهقي" حيث ذكر قوله عن الصعيد «والغالب على إقليم الصعيد، العلم والفهم والدين



والسياسة وحب العمارة وجمع المال والسماح والبهاء والرزينة.» (المصدر نفسه: ٤٥) وهذا القول المقتبس من الكتب التراثية يدل على مدى قدم مكانة الصعيد وخصوصيته على مدى العصور التاريخية، ويدل كذلك على مدى قراءة "يوسف القعيد" وإدراكه للقضية والموضوع الذى يناقشه فى روايته؛ فالرواية هنا ليست لمتعة القراءة فقط بقدر أنها وسيلة للكشف عن الواقع ومشكلاته وتسليط الضوء عليه لتلاشى سلبياته ومحاوله إيجاد حلول لهذه القضايا والمشكلات التى كانت إرث توارثته الحكومات المصرية دون وضع حلول فعلية وجذرية لهذه المشكلات المعقدة والمتراكمة.

ومن وجهة نظر "يوسف القعيد" يبدأ الوعى بمكانة الصعيد وخصوصيته، وكل أهل الصعيد يدركون جيداً خصوصية البعد الجغرافى لموطنهم من هذه الطبيعية وأثرها على ثقافتهم وطبائعهم، فقد ذكر "يوسف القعيد" فى روايته على لسان أحد الصعايدة إبراز البعد الجغرافى للصعيد فقد ورد كالتالى: «شرح الرجل نظريته عن الصعيد. قال إن بنى سويف من بحرى، وإن تمحكها فى الصعيد لا يجدى، وأن مقدمات الصعيد وبدائياته تهل من المنيا، وأن هناك الصعيد والصعيد الجوانى. كنت أعرف جيداً عواصم المحافظات، وكنت سافرت من قبل إلى الصعيد، وكان يمكننى الحديث معه عن الأقصر وأسوان، لكنه قال لى إن ذلك شغل سواح، وإن الصعيد شىء آخر غير الأثرات التى يأتى السواح لكى يرونها ويلتقطون الصور بجانبها، ويعودون بها إلى بلادهم كدليل على أنهم أتوا هنا وشاهدوا الصعيد المصرى.» (المصدر نفسه: ٢٦-٢٧) فوصف جغرافية الصعيد السابقة تحدد خصوصيته وتحدد شخصية الصعايدة، وأن أهل الصعيد لا يقبلون بمن ينتسب إليهم دون أن يكون جديراً بهذا الانتساب، مع التأكيد على أن الشكل الظاهر للصعيد من خلال زيارة المناطق الأثرية ليست هى الطريقة لمعرفة الصعيد المصرى بل يجب معرفته عن طريق الاختلاط به فى القرى والنجوع ومعرفة طبيعة حياته وظروفه الحياتية، ويؤكد على هذه النظرية ما ورد فى الرواية: «قال لى إن من يريد أن يشم رائحة الصعيد، عليه بركوب قطارات الفقراء، أما هذا الذى تركبه فهو يحترق الصعيد نازلاً من الشمال إلى الجنوب، وصاعداً من الجنوب إلى الشمال، دون أن يعطيك فرصة لكى تلمس بجواسك الخمس الواقع الذى يجرى من خلاله.»

(المصدر نفسه: ٢٨-٢٩) ويستمر "يوسف القعيد" في روايته على تأكيد خصوصية الصعيد على لسان شخصيات روايته فبعيدا عن العامة من الناس فهو يوصف خصوصية الصعيد على لسان أحد الشخصيات المثقفة في روايته كدليل على أن خصوصية الصعيد موجودة عند العامة من الناس و النخبة المثقفة منهم فنجد على لسان "الأستاذ مجلى" يؤكد على هذه الخصوصية حيث يقول: «الصعيد لغز. الصعيد معمار قديم من العادات والتقاليد، هناك طريقتان للتعامل معه، إما الدخول فى المعمار أو محاولة هدمه، والكل يحتويه المعمار الضخم القديم، الصعيد معبد فرعونى قديم.» (المصدر نفسه: ٨٥)

حتى أن "يوسف القعيد" لا ينسى فى سرد روايته تصوير أبسط سمات الصعايدة وخصوصياتهم فنجد مثلا يستعرض حب الصعايدة لشرب الشاي ذو المذاق الخاص فقد جاء فى حوار بين الشخصية الرئيسية فى الرواية وشخصية "فرج" عامل نادى الموظفين «لا بد وأن أحبس براد شاي، سألتنى هل أحبه شايأ صعيدياً أم بجراويا؟ لم أكن فى حاجة لسؤاله عن الفارق بين الاثنين، قلت له: نجرب الصعيدى. جاء ومعه براد وكوب شاي صغير ومحمدق رفع البراد عالياً بيده وصبّ الشاي. باللون الشاي أسود لم يكن فيه أى أثر للون الأحمر. عندما شاهد دهشتى قال لى إن الصعيدى يحب رؤية لون الشاي الأسود فى الكباية قبل شربه، إنهم يشربون بأعينهم أولاً، ويتذوقونه بألسنتهم...» (المصدر نفسه: ٧٥)، وبلحظ أن الصعايدة يصفون صبغة قاسية وعنيفة على حياتهم فمثلاً الشاي لا يشربه الصعيدى إلا إذا كان أسود قائم اللون وهذا يتناسب بشكل غير مباشر مع الطبيعة القاسية والعنيفة لدى أغلب الصعايدة.

ويتبين مما سبق أن الطبيعة الجغرافية للصعيد بكل سماتها القاسية ساعدت على صيغ الصعيد بحدة الطباع مما يؤدى إلى بروز العنف بكل أنواعه كظاهرة اجتماعية واضحة فى مجتمع الصعيد؛ بعبارة أخرى الطبيعة القاسية جعلتهم يتقبلون العنف من سلوك ومن مظهر حتى فى أبسط التفاصيل مثل نوع الشاي المفضل لديهم؛ كأنهم يريدون تمييزهم عن غيرهم.

### علاقة العنف بالصعيد

ارتبط الصعيد فى الفكر المصرى بالعنف والقتل، وعلى الرغم من هذا نجد تناقضاً

لهذه الفكرة في الفكر المصري أيضاً، حيث نجد أن أهل الشمال في الكثير من النكات يسخرون من الصعيدى لطيبته وسماحته «وتجدر الإشارة إلى أنه بالرغم من أن الفلاحين المنتمين للوجهين البحرى والقبلى يكونون عرضة للنكت التى يطلقها الحضر والنخبة، نجد أن الصعايدة على وجه الخصوص أكثرهم استهدافاً لكنهم - أى الصعايدة - معروفون بالتسامح ويظهرون حساً عظيماً بالمزاح.» (الأسود، ٢٠١٣م: ٦٣) وما يؤكد ذلك ما ذكره ابن ذولاق (٣٠٦-٣٨٦ق/٩١٩-٩٩٦م) والذى أورده "يوسف القعيد" فى الرواية حيث ذكر «ومن محاسن الصعيد الجلييلة كثرة الأمن ولاسيما فى الوجه القبلى منه، يسير الإنسان فيه ليلاً ومعه ما يشاء فلا يجد من يعترضه، وقد ركبت مرة وأمسى الليل على وأنا وحدى، فربطت فى حجر ونمت.» (يوسف القعيد، ٢٠٠٩: ١٢٤) وعليه نجد أن الصعيد موطن أمن واستقرار منذ القدم لكن التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى مرت بمصر خاصة فى القرنين الأخيرين ساعدت على انتشار العنف فى الصعيد وترسخت هذه الظاهرة حتى أصبح العنف صفة أساسية مرتبطة بالصعيد، حتى أن العنف أصبح له فى الصعيد خريطة خاصة يعرفها الصعيدى فقد جاء فى الرواية على لسان أحد ركاب القطار موجهاً حديثه للصحفى البطل الرئيس فى الرواية قائلاً: «- جئت أحقق جريمة / قال على الفور مستعرضاً معلوماته: - إذن ستذهب إلى مكان من ثلاثة: البدارى، أو صدفا أو أنوب... سألته، لم حددت هذه المدن الثلاث؟ وهل للجريمة فى الصعيد جغرافياً محددة ومعروفة؟ قال لى إن هذه المدن تمثل مثلث الرعب الصعيدى.» (المصدر نفسه: ٢٤)

### عوامل ظهور العنف وانتشاره فى الصعيد من خلال الرواية

أما أهم العوامل التى أدت إلى ظاهرة العنف فى الصعيد فى السبعينيات فقد حدد "يوسف القعيد" فى روايته بعضها والتى بدورها أدت إلى تهميش الصعيد - حتى الآن - وتراكم مشكلاته ويمكن إجمالها فى النقاط التالية:

(أ) يأتى تهميش الدولة وحكوماتها للصعيد أول عامل من العوامل التى أدت إلى ظهور بعض قضايا الصعيد وهذا ما جاء على لسان "الأستاذ مجلى" الذى كان يرى أن

عدم تدخل الدولة ووضع القوانين الرادعة والاستثنائية لحل قضايا الصعيد ومشكلاته سبب لمشكلات الصعيد فقد صرح وقال: "اسمع، لا حل إلا بأن تتواجد الدولة" (القعيد، ٢٠٠٩: ٥٥) وفي موضع آخر قال "لا مفر من يد الحكومة الباطشة تقف بين الظالم والمظلوم." (المصدر نفسه) وقال أيضاً: «القانون الطبيعي مطلوب لمواجهة وضع طبيعي، والقانون الاستثنائي يواجه وضعاً استثنائياً، وما نعيشه نحن وضعاً استثنائياً مائة في المائة.» (المصدر نفسه: ٥٦) وكذلك يجب الإشارة هنا إلى تجاهل الإعلام المدعوم من الدولة وإغفاله لقضايا الصعيد الحيوية والهامة، وهذا يبرز لنا في الرواية من خلال تجاهل مدير تحرير الجريدة للموضوعات الرئيسية التي عرضها عليه الصحفي بعد رحلته للصعيد، فلقد تجاهل مدير التحرير موضوعات وجود وفد إسرائيلي واختراق أمنى من إسرائيل للصعيد وتجاهل قضايا الثأر وتجارة السلاح، والعمليات الإرهابية المستمرة في الصعيد، وتجاهل الأثر النفسى للقتل على بعض العساكر والجنود مثل "الصول بدير" و "العسكري عنتر كامل مصطفى"، وخرافات مجتمع الصعيد مثل حديثهم عن ظهور "جمال عبد الناصر" في قرية "الترامسة" بمحافظة "قنا" على الرغم من موته وكذلك وجود الخط - حتى الآن، لكنه أعجبه موضوع خاص باغتصاب سيدة صعيدية تدعى "قمريّة" لرجل حتى موته، واختياره لهذا الموضوع دون غيره من الموضوعات يدل على كيفية تعامل الإعلام بكافة صوره مع الصعيد بحيث يتم البحث عن موضوع إعلامي يحدث بلبله ويحقق توزيعاً للجريدة دون البحث عن موضوعات تمس الحياة وتحل المشكلات المتراكمة يقول "يوسف القعيد" في روايته على لسان مدير التحرير: «... إن الاغتصاب النسائي، عندما تكون المرأة هي المغتصبة - بكسر الصاد وليس بفتحها - يصبح الأمر أكثر إثارة، إنه يضاعف توزيع المجلة، خاصة إن نشرت الحادثة بصورة مسلسلية، خمسون حلقة على مدى خمسين أسبوعاً، أى حوالى اثني عشر شهراً...» (المصدر نفسه: ٢٠٥)

ب) وتُعد مسألة السلاح وانتشاره من أقوى الأسباب التي أدت إلى ظهور العنف في الصعيد، وكان "يوسف القعيد" ذكياً في عرض قضية السلاح فمن خلال عرضه حتى يوضح دور الدولة في ظاهرة العنف وصناعتها وليس في سرعة حلها، فقد أشار إلى

أن الدولة كانت السبب في رواج تجارة السلاح بسبب إجراءاتها الأمنية في تجريدة السلاح في قرية "الحراجية" في محافظة "قنا". فقد جاء بالرواية «فهم العمدة المسألة على بلاطة، من لديه سلاح يسلمه أو جزا منه، ومن ليس له سلاح عليه أن يتصرف، وهكذا اتضح الموقف، لا بد من وجود مهلة من الوقت حتى يتم جمع السلاح المطلوب.» (المصدر نفسه: ١١٤) وبكامل الحدث في موضع آخر فيقول: «وبعد المفاوضات بدأت عملية تسليم الأسلحة، كانوا يحددون لكل فلاح الأسلحة المطلوبة منه حتى يحضرها، وكانت تتم عمليات استبدال أنواع مستحيلة بأنواع ممكنة ومتاحة إن تعذر عليه تسليم ما يحدونه له.» (المصدر نفسه: ١١٤) وبدأت عملية شراء السلاح من تجار السلاح حتى يتم تسليمها للشرطة وهذه الحادثة التي جاءت في أحداث الرواية تدل على مساهمة الدولة بشكل غير مباشر في مشكلات الصعيد، فعن طريق السلاح تتم عمليات الثأر والعمليات الإرهابية وهجوم المطايرد للسرقة والنهب.

ج) أثرت التغييرات السياسية العامة للدولة على إثارة العنف في صعيد مصر، وانعكست السياسة العامة للدولة على الحياة في الصعيد، وما نقصده هنا تحديداً هو أثر معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل والمعروفة باسم "معاهدة كامب ديفيد" والتي من وجهة نظر الرئيس محمد أنور السادات - والذي أطلق عليه في الرواية اسم الرئيس المؤمن - كانت خطوة لإقرار السلام وتجنب الحروب مع إسرائيل لكن كان لها آثار سلبية على مصر، وأوضح "يوسف القعيد" مدى تأثير هذه السياسة من قبل النظام الحاكم في مصر على الصعيد، حيث أصبح الصعيد مسرحاً لمباحا للصهاينة وأصبح اليهود يؤثرون على أمن الصعيد فقد جاء على لسان الصحفي: «...قلت ولكن لنفسى: إن كتب التاريخ القديم الوسيط والحديث، تحكى وتقول إنه لم يحدث من قبل أن وصل الأعداء والمحتلون والغزاة إلى قلب الصعيد الجوانى.» (المصدر نفسه: ٩٥) وكان لهذه السياسة من قبل النظام المصرى وقتها أثرها غير مباشر على الصعيد فكان لوجود الصهاينة في الصعيد سواء بشكل رسمى أو غير رسمى أثره على الإجراءات الأمنية التي تؤثر على حياة الصعايدة وحريرتهم، وكانت تثير الغيرة لديهم والغضب مما كان أيضاً دافعاً قوياً لدى الجماعات الإرهابية لتجنيد الشباب ولاتخاذ هذه الإجراءات سبباً في

شن هجمات إرهابية، حتى أن بعض رجال الدولة ذاتهم كانوا ينجلون من ذلك، فقد جاء في الرواية موقف محافظ "قنا" الذي كان يهتم بتأمين الوفد الشباب الإسرائيلي الذي جاء في ضيافة من وصفها يوسف القعيد في الرواية "الهائم سيدة مصر الأولى حرم الرئيس المؤمن" حيث كان أول وفد ترسله الهائم وترسله إلى الصعيد ونلاحظ أن المحافظ على الرغم من قيامه بذلك فهو خجول من أفعاله: «... قلت له بصوت عال: وفد شبابي إسرائيلي يا سيادة المحافظ؟! كان يبلى ريقه بصعوبة، مد يده يوسع من ياقة قميصه حول رقبته فتح القميص وأنزل ربطة العنق قليلاً، وبرغم وجود أكثر من جهاز تكييف في الغرفة هوى بيديه حول وجهه.» (المصدر نفسه: ١١٧-١١٨)

(د) كان للإجراءات الاقتصادية في فترة السبعينيات والتي عرفت باسم عصر الانفتاح أثرها غير المباشر على صعيد مصر فكانت هذه الإجراءات الاقتصادية فقد وضحا "يوسف القعيد" في روايته قائلاً: «... شاب متعلم كان يجلس على المقهى أكد لي أن المواصلة تبقى حتى الفجر، فنحن في أيام الانفتاح، استيقظت حواس المدنية البعيدة بداخلي، وسألته عن العلاقة ما بين الانفتاح والتاكسي الذي يعمل حتى الفجر / - القروشيات بتاكل الناس، مثل البراغيت والنمل تقوم تجرى تصرفها وترجع من تانى . فاجأنى بشرح آخر: - الولد تهج، وتطير بلاد الله خلق الله، تجيب القروشيات، وتعاود تهج في نصاص الليالي علشان تصرف القروشيات.» (المصدر نفسه: ٥٠) وكانت سياسة الانفتاح الاقتصادي سبباً في ظهور عدد من صور الحياة المغايرة لطبيعة الصعيد وصورته فجاء على لسان الأستاذ "مجلي" أنه قال: «هرب الرجال، هجرة جماعية، خرجت البنات، أموال البترول جاءت، والمسجلات ملأت الشوارع، والتليفزيونات في كل بيت وجوازات السفر في الأيادي والدولار ظهر على المقهى وفي الحقل.» (المصدر نفسه: ٥٨) وهذا الأمر أثر بالسلب على السلم الاجتماعى داخل المجتمع مما ساعد على ظهور عدد من مظاهر العنف مثل السرقة والنهب والسلب وكذلك حتى أنها بلغت إلى الحد مثلاً لحدوث بعض حوادث الاغتصاب العكسى من النساء للرجال وذلك لهجرة الرجال إلى الخارج: «... قمريّة التي كانت لديها الشجاعة لتبدأ حفل الاغتصاب الجماعى لرجل، تقوم به نساء محرومات حتى من

رائحة الرجال...» (المصدر نفسه: ٢٠٦)

ذ) التمسك بالعادات والتقاليد السيئة والتي أدت إلى انتشار الطواهر السيئة في المجتمع الصعيدى مثل ظاهرة الثأر التي انتشرت في المجتمع الصعيدى بسبب العادات والتقاليد البالية والتي تدخل في مقدسات الصعيدى والتي تتناقل ما بين الأجيال حتى صارت في بعض الأماكن في الصعيد حدث يومية وجزء من الحياة اليومية فقد بين "يوسف القعيد" ذلك في الرواية بعد تنفيذ إحدى الحالات الثأرية «الليلة سيقام المأتم المؤجل منذ قتل المجد، كما أن واحداً من هؤلاء الشبان الثلاثة، لا بد وأن يقتل ذات يوم، ذلك كأس الدم لا بد وأن يدور على الجميع.» (المصدر نفسه: ٨٢) وكما سبقنا القول إنه من العادات والتقاليد الصعيدية السيئة - والتي مازالت موجودة حتى يومنا هذا - هي انتشار السلاح بين أهل الصعيد فيصف ذلك يوسف القعيد في روايته قائلاً: «بلاد مدججة بالسلاح حتى أسنانه» (المصدر نفسه: ١٠٤) ويعد التمسك بجيازة السلاح عند أغلب أهل الصعيد لفكرة الدفاع وليس للعدوان فقد جاء بالرواية: «وهل هناك بيت أو حقل لا سلاح فيه؟ الجميع يدافع عن نفسه، والسلاح هو الوسيلة الوحيدة لذلك، هذا سلو الصعيد، وقطعة السلاح في البيت هي أمانة، وفي الحقل فإن وجودها يجعل صاحبها من المطاريد.» (المصدر نفسه: ١١٢)

ر) ساهمت عزلة الصعيد وقلة وسائل الاتصال بينه وبين الشمال والذي تمثله القاهرة في تشبث الصعيد ببعض عاداته السيئة، ومن ناحية أخرى ساهم في إهمال الدولة لمشاكل الصعيد وقضاياها، وقد ركز "يوسف القعيد" على هذه النقطة في روايته، فقد لخص ذلك في جملة عبر بها أحد ركاب قطار الصعيد وهو باحث اجتماعي حيث قال: «العزلة والاتصالات، ذلك هو جوهر المشكلة» (المصدر نفسه: ٩١) وقد أبرز هذه النقطة في أكثر من موضع مرة يتحدث عن وسائل الإعلام المختلفة فيقول عن تأخر الصحف اليومية والمجلات والتي يعدها البعض رفاهية وترف فقد أشار إلى ذلك في أكثر من موضع فجاء على لسان "فرج" عامل نادى الموظفين بأنه قال: «ضحك فرج وضرب كفا بكف، قال لى إن بالى رايق، صحيح أننى قادم لتوى من الشمال البعيد، طالع من تحت، إن الجرائد التي اتكلم عنها إن جاءت في المساء يكون ذلك من

حسن الطالع، جميع الذين يقرءونها في البندر تعودوا على وصولها في اليوم التالي، كل ما فيها بايت... إن الجرائد لو جاءت في نفس اليوم تكون وصاية، وللبهوات الكبار، المأمور، وحكمدار أمن الدولة، الذى أقول عنه ضابط المباحث، والبيه وكيل النيابة... والمجلات؟! قال لى ضحكاً: فى المواسم والأعياد والعطلات الرسمية.» (المصدر نفسه: ٧٢-٧٣) وفى موضع آخر يقول على لسان أحد ركاب قطار الصعيد: «إن الصحف تصل إلى عواصم المحافظات -فقط- يعود ليؤكد المحافظات المهمة لأنه ليست جميع محافظات الصعيد مهمة لتصل إليها الصحف فى اليوم التالي لصورها، ثم تصل بعد يوم آخر- الثالث بعد صدورها- إلى المراكز والبنادر ولا يعرف أحد متى تصل إلى القرى، هذا إن كانت تصل أصلاً إليها، والمجلات فهى نسخ فردانية تصل بعد أسابيع من صدوره.» (المصدر نفسه: ٩٠) أما عن الإذاعة والتلفزيون فقد جاء على لسان شاب من ركاب قطار الصعيد قائلاً: «إنهم يسمعون جميع الإذاعات إلا مصر، هواء هذه الأماكن مخترق من جميع الأصوات التى تأتى من جميع أنحاء العالم ماعدا مصر، التى يلتقطها الراديو ولكن بالصدفة، والتلفزيون؟! لا بد من خريطة دقيقة حتى تتمكن من التقاط إرساله، يصل إلى أماكن ومخاصم أماكن أخرى ولا يدرى أحد السبب فى ذلك.» (المصدر نفسه: ٩٠-٩١) أما عن الاتصالات التليفونية فقد ذكرها "يوسف القعيد" على لسان الصحفى الذى عان كثيراً فى إجراء مكالمة للقاهرة فيقول واصفاً حاله: «... تذكرت أن عذابى فى اليوم بليلة الماضيين، كان فى إجراء اتصال تليفونى مع القاهرة، سنترال وحيد فى مدينة كبيرة، يقوم بكل العمل المطلوب فيه موظف وحيد، هو مسئول الاتصالات التليفونية والبرقيات سواء كانت إرسالاً لتلغرافات أو استقبلاً لها.» (المصدر نفسه: ٨٩)

### أشاط العنفة فى الصعيد فى السبعينيات من خلال الرواية

وفى السطور التالية سوف نستعرض أهم صور العنفة التى واجهت صعيد مصر والتى سلط عليها "يوسف القعيد" الضوء فى روايته، وسوف نقسم هذه الصور إلى الإرهاب والثأر والفتنة الطائفية والمطاريد ويمكن تفصيلها من خلال الشكل البيانى التالى:





الرسم البياني رقم ١: أهم صور العنف في الصعيد من خلال رواية قطار الصعيد

تُعد ظاهرة العنف من أهم قضايا ومشكلات صعيد مصر والتي - للأسف حتى الآن - يعاني منها الصعيد منذ ما قبل السبعينيات، ولقد برزت ظاهرة العنف بشكل كبير جداً في فترة السبعينيات وهذا راجع لمجريات هذه الفترة والتي شهدت تغيرات سواء كانت على المستويات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية، وحاول "يوسف القعيد" وفي رواية "قطار الصعيد" أن يناقش ظاهرة العنف هذه مستعرضاً عوامل مع مناقشة كل قضية وعوامل ظهورها ونتائجها.

#### أ. الإرهاب

لقد عانت مصر بصفة عامة وصعيد مصر بصفة خاصة منذ السنوات الأخيرة من العقد السابع من القرن الماضي وحتى الآن من الإرهاب وآثاره التدميرية سواء كانت في صورة تخريب للمؤسسات والمنشآت العامة والخاصة أو كانت في صورة قتل للأشخاص من الشخصيات العامة مثل الساسة والكتاب وغيرهم أو قتل بعض البسطاء من عامة الناس، وللأسف مازال هذا الإرهاب وآثاره المستمرة في مصر حتى الآن. كانت بيئة صعيد مصر الجغرافية القاسية والحافة والحياة الثقافية التي تتمسك بالأفكار القبلية والعادات والتقاليد هي السبب الرئيس في نشأة الإرهاب وانتشاره في الصعيد وفي كل أرجاء مصر خاصة في فترة السبعينيات حتى نهاية التسعينيات من القرن الماضي، حيث إن «الصعيد لا يزال موطن الجماعات الاجتماعية القبلية المهمشة

والتي تتصف بالتحفظ والتمسك بالتقاليد بصورة تفوق نسبيا سكان الدلتا، وبسبب موقعه البعيد عن المركز السياسي؛ لأن الصعيد أصبح مكاناً للجماعات الإسلامية النشطة المدفوعة نحو مقاومة السيطرة المركزية للدولة.» (الأسود، ٢٠١٣: ٦٣) ولا يمكن أن نتجاهل أن البيئة الزراعية في الصعيد كان لها دور في ذلك أيضاً، بحيث استغلت الجماعات الإرهابية زراعات قصب السكر ليكون أماكن اختباء، حيث عملت الدولة لفترة على عدم زراعة قصب السكر في الصعيد أو على الأقل بالقرب من الطرق الرئيسية وهذا ما ذكره يوسف القعيد في روايته على لسان البطل الرئيس الصحفي وهو يضع عناوين لموضوعات رحلته للصعيد فيقول: «خطة كاملة للتخلص من زراعات القصب في الصعيد، موضوع تحت عنوان: الإرهاب والقصب.» (القعيد، ٢٠٠٩: ٢٠٣) ولقد كانت قضية انتشار الإرهاب في صعيد مصر من أول القضايا التي تواجه البطل الرئيسى للرواية "الصحفى" أثناء زيارته للصعيد، فعندما وطأت قدمه أسويوط كانت صور بعض العناصر الإرهابية أول ما تقع عينه عليها فجاء في روايته «...كنت قد خرجت من محطة السكة الحديد لحظة وصولي إلى أسويوط إلى الميدان المواجه لباب المحطة، والذي تطل عليه المحطة في كل بنادر مصر تقريباً، كانت جدران الميدان تغطيها صور، ليست صور المرشحين في آخر انتخابات، كما تعودنا أن نرى، لأن هذه الصور تكون معها رموزها الانتخابية، كانت صوراً مكبرة لأشخاص ملتحين، صور البطاقة مكبرة لرجال في صدر الشباب، والقليل منهم في منتصف العمر، وتحت كل صورة كلمة واحدة حمراء اللون ويخط غليظ: مطلوب، وتحتها سطران متساويان بينط أصغر: من يبلغ عنه يحصل على مبلغ مالي كبير، ومن يتستر عليه يعرض نفسه للعقوبة التي تصل إلى السجن.» (المرجع نفسه: ٣٣)

يمكن أن نطلق على العقد السابع من القرن العشرين عقد الميلاد الفعلي للإرهاب في مصر، حيث شهد هذا العقد بداية الفكر الإرهابي وظهور الكثير من المنظمات الإرهابية التي قامت بالكثير من الجرائم الإرهابية في مصر ليس في صعيد مصر فقط بل في جميع أرجاء مصر، فنجد أن هذه العمليات قد ارتبطت بتنامي التيار الجهاد الإسلامي في مصر، فنجد بعض أعضاء منظمة التحرير الإسلامي في ١٨ أبريل ١٩٧٤ تقتحم مستودع

الكلية الفنية العسكرية فى القاهرة، واستولوا على أسلحة وعربيات، بقيادة صالح سرية بهدف اغتيال الرئيس محمد أنور السادات وبعض قيادات الجيش المصرى التى عرفت فيما بعد بمحادثة "الفنية العسكرية" ثم "حادثة التكفير والهجرة" فى ٣ يوليه ١٩٧٧م، والتى قام بها أعضاء من مجموعة التكفير والهجرة التى بدأت بحظف الوزير المصرى "محمد الذهبى" وانتهت بمقتله بعد عدم تنفيذ طلبات المجموعة، وتبلورت أكبر عملية إرهابية فى مصر بمقتل الرئيس "محمد أنور السادات" فى حادث "المنصة" فى ٦ أكتوبر عام ١٩٨١م، على أيد متطرفين مسلمين. (عامر: ٢٠١٤)

ويمكن أن نطلق على ما سبق أهم الحوادث الإرهابية الشهيرة، حيث أن هناك الكثير من الحوادث الأخرى التى لم يسلط عليها الضوء فى تلك الفترة، وقد شهد الصعيد بعض هذه الحوادث التى لم يسلط عليها الضوء أو يتناولها الإعلام وهى التى سردها "يوسف القعيد" فى روايته "قطار الصعيد"، ومن تلك الحكايات حكاية "عنتر كامل مصطفى"، فمن هذه الحكايات التى أوردتها "يوسف القعيد" ضمن حكايات وأحداث روايته يتضح لنا كيف تم انتشار الإرهاب بين أهل الصعيد وكيف كان الصعيد بيئة صالحة لانتشاره، فنجد إن الشاب "عنتر كامل مصطفى" مثل أغلب شباب الصعيد يتسم بالتدين وحفظ بعض أجزاء القرآن وإلا أنه بعد ارتباطه ببعض الشباب الصغار فى مقتبل العمر أصبحت له سمات؛ خاصة الذقن والمجلباب الأبيض القصير وكان "عنتر كامل مصطفى" يلازمهم فى المسجد وكان أغلبهم من البندر ومن طلبة الجامعة، وكان حديثهم باسم الله وباسم الدين، وأطلق عليهم اسم الشيوخ الصغار أو الشيوخ الأولاد، فقد حدد "يوسف القعيد" الطريقة التى يتم تجنيد الشباب بها وجذبهم وهى اللعب على الوازع الدينى لديهم، بحيث كان الدين هو المحرك والمجاذب الأساسى لهؤلاء الشباب الصغار للدخول فى الجماعات الإسلامية والتى اتخذت العنف والقتل منهجاً وطريقاً لتطبيق أفكارها والتى تنتهى فى النهاية بتطبيق كلام الله، وبعد ذلك تحدث أحداث مهاجمة محلات الصاغة - كان أغلب محلات الصاغة ملك لتجار نصارى - من قبل الجماعات الإسلامية التى كانت تأخذ هذا الذهب ليشتروا به السلاح والإنفاق على الجماعات وهذه الأحداث شهدتها مصر حتى فترة التسعينيات يصفها "يوسف القعيد"

فى روايته «قال الرواة إن هناك حمامات دماء، جماعات دينية هاجمت محلات صاغة، وأخذت ما فيها وباعوا الذهب لكى ينفقوا ثمنه على الجهاد فى سبيل الدعوة، وقيل إن عددًا من الشباب، ذوى الذقون الطويلة، حاولوا القيام بانقلاب وإعلان جمهورية منفصلة عن الدولة، ولكن المحاولة أخطت.» (القعيد، ٢٠٠٩: ١٨١)

والجدير بالذكر أن الهجمات الإرهابية كانت تستهدف رجال الدولة ومن يقف مع الدولة ضد فكرهم مثل ما حدث فى الحرم الجامعى فى أسيوط ومحاربة قوات الأمن، والنصارى لكونهم ليس من أهل الإسلام وذلك كان سبباً مباحاً لمهاجمة محلاتهم خاصة محلات الصاغة، والسياح الأجانب لكونهم كفاراً فيذكر يوسف القعيد فى روايته على لسان الصحفى إحدى الحوادث التى حدثت فى الصعيد من قبل الجماعات الإرهابية والتى توضح ذلك «... مجموعة من الإرهابيين، ارتدوا ملابس جنود، وركبوا القطار، وأوقفوه، وانزلوا منه رجال الشرطة والأغنياء من الصعايدة، وتغافلوا عن السياح باعتبارهم غرباء عن بر مصر.» (المصدر نفسه: ٢٠٢)

## ب. الثأر

تعد ظاهرة الثأر من أكثر مظاهر العنف فى صعيد مصر، وأكثر صور العنف انتشاراً فى الصعيد، وهذا يعود فى أصله إلى عدة أسباب منها فكرة القبلية والتمسك بتقاليدها، والسبب الثانى متعلق بانتشار السلاح وتوافره فى الصعيد وهذا كما أشرنا سابقاً كان بسبب التغيرات التى طرأت على الصعيد سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية وعض طرف الدولة عن ذلك سواء كان بقصد أو عن عمد، والسبب الثالث قلة التعليم وانتشار الجهل وعدم محاربة الأفكار والعادات السيئة، والسبب الأخير ضعف المعرفة بتعاليم الدين وعدم نشر العلوم الدينية بشكل سليم بين الناس مما يؤدى إلى إعلاء الأفكار والموروث على تعاليم الدين.

وفى حقيقة الأمر فإن ظاهرة الثأر مازالت منتشرة حتى يومنا هذا وأصبح الثأر علامة مميزة من علامات الصعيد، ولقد كان "يوسف القعيد" مدركاً وعلى وعى تمام بهذه الظاهرة وأسبابها وأثرها على المجتمع، وحاول فى روايته أن يبرزها ويسلط عليها

الضوء في أكثر من موضع في روايته، بحيث أشار يوسف القعيد على أن الثأر أصبح مثل عادة يومية أو حدث طبيعي من أحداث اليوم في الصعيد، فقد جاء في أحداث الرواية أثناء وجود الصحفي في "البدارى" وقوع حالة ثأر بجوار المقهى الذى كان يوجد به الصحفي، ويصف "يوسف القعيد" تعامل أهل الصعيد مع حوادث القتل عامة والثأر على وجه الخصوص والذى أصبح كروتين يومية أو شىء مألوف فى حياة الصعيدي، فيقول: «ما أدهشنى أثناء جلوسى على المقهى، هو الطريقة التى يتعاملون بها من القتل هنا، لو أن هذا الحادث وقع عندنا فى مجرى لتوقفت الحياة منذ وقوع الجريمة، ولظلت متوقفة فترة من الوقت، إن مجرد العراك بين الجيران، أو الخناق حول الرى يوقف الحياة طويلاً، فما بالك بالقتل، قتيلان فى ليلة واحدة؟! كان الناس يتحدثون عن الموضوع كله، عن القتيلين والقاتلة كأن الموضوع جزء من حكاية كل يوم...» (المصدر نفسه: ٤٨-٤٩) ولقد أكد ذلك "يوسف القعيد" فى موضع آخر من روايته فقد جاء على لسان الصحفي وصف حال الناس بعد حادث ثأر أمام المقهى فيقول: «بدأ الناس فى الانصراف، ولكن بهدوء وفى صمت، كانوا يتعاملون مع حدث يقع كل يوم، لم تكن هناك دهشة فى الأعين ولا استغراب على ملامح الوجوه، ولا خوف ولا فزع، أو حتى إحساس بالرهبة.» (المصدر نفسه: ٨١) وعند استفساره عن سبب إطلاق الرصاص من "فرج" عامل النادى «- إرهاب وتطرف؟/ قال لى: لا/ - سرقة؟!/ حرك يديه علامة النفي، وعندما استفهم منه كل جزء من وجهى، قال لى: - حكاية كل يوم، لم بيد على أننى فهمت ما يقوله، أوضح- ثأر.» (المصدر نفسه: ٨١)

ويركز "يوسف القعيد" على إبراز خصائص الثأر لدى الصعيد، فهناك خصائص وإن جاز التعبير نقول مراسم خاصة بالثأر أوضحها وسلط عليها "يوسف القعيد" الضوء فى روايته، ومن أول هذه السمات أن الثأر لا يؤخذ من امرأة، ذكر "يوسف القعيد" ذلك فى روايته قائلاً على لسان أحد المجالسين على المقهى «... قال إن القاتل حرمة، ولذلك لن يكون هناك ثأر منها، ولا يمكن لرجل أن يقتل حرمة طلباً للثأر، قد يقتلها لغسل عاره، أو تصحيح خطأ وقعت فيه، أما القتل من أجل الثأر فمن المستحيل أن يحدث.» (المصدر نفسه: ٤٩) السمة الثانية أن الثأر يؤخذ ولو بعد جيل أو جيلين فقد جاء على

لسان "فرج" عامل نادى الموظفين عن الشباب الذين قتلوا رجلاً أمام المقهى فى حادث الثأر قائلاً: «... إن هؤلاء الشباب، أخذوا بثأر جدهم، الذى قتل قبل أن يولدوا، ولأن والدهم مات من الحسرة على أبيه، وكانوا هم أطفالاً فى ذلك الوقت، كانوا فى اللفة يرضعون، فقد كانت أول هدية لكل منهم بندقية، وكانت المهمة التى يعدون لها هى الثأر.» (المصدر نفسه: ٨١-٨٢)

وعليه فالثأر ظاهرة عنف مازالت باقية حتى يومنا الحالى تحتاج الكثير من السعى لتجنبها سواء من قبل الناس والنخبة المثقفة من أهل الصعيد أو من جانب الدولة بكل أجهزتها ومؤسساتها لتجنب هذه الظاهرة السيئة فى صعيد مصر.

### ج. الفتنة الطائفية

تعد قضية الفتنة الطائفية من المشكلات الشائكة فى المجتمع المصرى، وموضوع ذو حساسية كبيرة فى المجتمع المصرى، وتحركت نار الفتنة بين المسلمين والنصارى فى مصر بداية الستينيات وتأججت ووصلت إلى ذروتها فى فترة السبعينيات، وكان صعيد مصر مسرحاً لبعض أحداث الفتنة بين المسلمين والنصارى فى مصر، ومن الأحداث التى حدثت فى صعيد مصر هى محاولة تأسيس دولة مسيحية فى صعيد مصر تكون محافظة أسبوط هى عاصمتها وباقي محافظات الصعيد تصبح باقى أجزاء الدولة المسيحية، كما أن نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات شهدت أقوى صراع بين الدولة وعلى رأسها الرئيس محمد أنور السادات والكنيسة فى مصر والتى كان يمثلها البابا شنودة حتى وصل الأمر لعزل البابا شنودة من منصبه، وهذه الأحداث وتتابعها المستمر بالإضافة لظهور الجماعات الإسلامية والفكر التكفيرى والذى ساعد على إضفاء المزيد من التعقيد فى قضية الفتنة الطائفية فى مصر وخاصة فى الصعيد.

وكان "يوسف القعيد" صاحب رؤية خاصة فيما يخص قضية الفتنة الطائفية وقدرته على استيعاب القضية ومهارة عرضها داخل الرواية فقد ركز "يوسف القعيد" فى روايته أولاً على توضيح الشخصيات المسيحية ومزجها داخل الرواية وكأنها طرف ثانى متساوى مع باقى الشخصيات فنجد شخصية مدير التحرير مسيحي ولم يذكر اسمه، ونجد

السيدة التي قتلت رجلين مسيحية واسمها "مريم" وزوجها القاتل مسيحي واسمه "شمشون جرجس عبد المسيح" وشخصية أحد الصاغة في حكاية "عنتر كامل مصطفى" مسيحي واسمه "المقدس محب"، كما أن "يوسف القعيد" كان يدرك جيداً حجم القضية وأبعادها؛ لهذا كانت قضية الفتنة الطائفية هي الحكاية الأساسية وصب الرواية التي تدور حوله باقى الحكايات، بحيث كان الحدث الرئيس للرواية والدافع الأول لسفر الصحفى ورحلته للصعيد سببها الأول حادث قتل قامت بها سيدة مسيحية تدعى "مريم" وقتلت زوجها "شمشون جرجس عبد المسيح" وهو رجل مسيحي وعشيقها المسلم وهو "أحمد معاطى"، وكان "يوسف القعيد" يحاول أن يضيف قضية القتل بعد قضية الفتنة الطائفية ويحاول أن يجعل المشاركة بين الطرفين حتى فى قضية القتل، وكذلك نجد أن "يوسف القعيد" يوضح مدى حساسية العلاقة بين المسلمين والنصارى فى فترة السبعينيات فيشير فى الرواية إلى ذلك عند وجوده فى نادى الموظفين فى مركز "البدارى" بأسيوط وتنبه "الأستاذ مجلى" لذلك فقد جاء فى الرواية على لسان الصحفى «... ونبهنى إلى ضرورة الاهتمام بمعرفة ديانة كل من يقابلنى، وعندما قلت له إننى لا أهتم بذلك الأمر الذى أعتبر أن الاهتمام به من الأمور المتخلفة التى تعود إلى نظرة متعصبة ضيقة، وأن روح العصر تحطت هذه الأمور، قال إن الأمر سهل، على فقط الاهتمام بالأسماء، أن أطلب من كل إنسان أن يقول اسمه رباعياً أو ثلاثياً، وسأعرف ديانته من اسمه...» (المصدر نفسه: ٦٣) فهذه الطريقة فى التفكير تدل على مدى الحساسية التى كانت موجودة فى المجتمع بين المسلمين والنصارى ونفس الأمر نجده يحدث بين مدير التحرير والصحفى فى نهاية الرواية عند اختيار موضوع المرأة التى تدعى "قمرية" والتى قامت باغتصاب رجل فقد جاء فى الرواية «توقف وسألنى: قمرية اسم مسلمة أم مسيحية. قلت له صادقاً إننى لا أعرف، كان مسيحياً متعصباً لكل ما هو مسيحي، وحاول أن يبدو غير مهتم بهذه الحكاية، مع أنها كانت جوهر الاهتمام...» (المصدر نفسه: ٢٠٥-٢٠٦)

أما عن الأمور التى ساعدت من وجهة نظر "يوسف القعيد" على اشتعال الفتنة الطائفية فى مصر يمكن أن نقسمها إلى سببين رئيسيين؛ أولهما سياسة الدولة ومنهجها

ونظرتها للقضية فقد جاء على لسان "الأستاذ مجلى" أنه قال فى حديثه للصحفى: «قال إن المشكلة تكمن فيما يقولونه فى مصر، أدركت أنه يقصد القاهرة، قال إن رئيسكم المؤمن منذ أن قال عنصرى الأمة قسمنا إلى عنصرين، لكنه تناسى أن يحدد ما هو النصف الحلو ومن يبقى العنصر المالح، ثم عاد يقول الفتنة الطائفية فحولنا إلى طائفتين، وإن كان قد رفض الاعتراف بالطائفة المنتصرة، وشعاره زبيبة الصلاة، وكان هو أول من رباها، وكل منتصر لا بد له من مهزوم، يقول نسيج الوحدة الوطنية وليس وحدة الوطن، مع أن هذا النسيج عمره أربعة عشر قرنا، وقد أصبح قديما متأكلا، ليس بسبب العته، ولكن بفعل مرور الوقت وتقدم الزمان.» (المصدر نفسه: ٥٦) وهذا يوضح كيف كانت تتعامل الدولة مع قضية الفتنة الطائفية وأوضاع النصارى فى مصر فى فترة السبعينيات، وكذلك كان دور التعامل الإعلامى والصحفى والأجهزة الأمنية لقضية الفتنة الطائفية وهذا ما أكد عليه "يوسف القعيد" فى الرواية فى التعامل مع قضية قتل السيدة المسيحية "مريم" لزوجها وعشيقها فقد جاء بالرواية «وجدتني أعوم فى بحر من الحكايات، ذهبت إلى المأمور، وبعده قابلت وكيل النيابة، وكان الرد فى الحالتين واحداً: صدر قرار بحظر النشر / سألت: ولم؟! / قال: لحساسية الموضوع / -حادث قتل / قال المأمور: لا تنس أن القتلة مسيحية والقتيل مسلم / قلت: ولكن هناك قتيلاً آخر مسيحياً / قال وكيل النيابة: الحكاية متشابكة ومعقدة، وتثير الكثير من الأمور السخيفة / تعب المأمور من مناقشتي، فقال: أرجوك، جنب مصر الولايات / استفهمت منه قال لى: باب الطائفية يفتح بالمصادفة، بحادث عابر، ولكن يصبح من المستحيل إغلاقه. / قلت له: ذلك أكبر تبسيط للأمور، ومن قال إن الحكاية تجرى هكذا.» (المصدر نفسه: ١٣٢-١٣٣) أما السبب الثانى فهو التطرف والتعمد فى مهاجمة النصارى من قبل الجماعات الإرهابية فى صعيد مصر ومنها أحداث الهجوم على الكنائس واستمرت هذه العمليات حتى وقتنا هذا ولكن بصورة متباعدة وليست مستمرة ومتتالية مثل فترة السبعينيات حتى التسعينيات وكذلك الهجوم على محلات الصاغة التى أغلبها فى الأساس للنصارى وهذا جسده "يوسف القعيد" فى روايته فى شخصية "المقدس محب" صاحب محل الذهب الواقع أمام محل بقالة "عنتر كامل مصطفى" الذى انتهى إلى



جماعة إرهابية تكفيرية، فقد عبر "يوسف القعيد" عن قلق وخوف النصارى من أصحاب هذه الجماعات الإرهابية والمنتهم "المقدس محب" الذى جاء تعامله مع "عنتر" بالخوف والقلق بداية من انتماء عنتر للجماعة الإرهابية، «وعندما كان عنتر يحرق صور الفنانة خرج المقدس محب وضرب كَفًّا بكف، قال إن عبادة الرب أمر بينه وبين الإنسان، لا يجب أن يشعر بها أحد، وإن كان لم يقل إن ما يقوم به عنتر لا مبرر له...». (المصدر نفسه: ١٧٣) ومن صور الخوف والقلق لدى "المقدس محب" من "عنتر" ورفاقه من الشباب ما جاء فى الرواية فيصف "يوسف القعيد" حالة الخوف التى كانت تسيطر على "المقدس محب" قائلاً: «كان المقدس محب يتصرف وكأنه لا يرى عنتر، وكان قد امتنع عن الحديث عن أى أمر من أمور عنتر، كأنه لا يراه، ولا يسمعه، ولا يشعر بوجوده، ما إن بدأ الشباب يترددون على المحل، حتى بدا المقدس محب وكأنه قد ركبه العصبى، غير المقدس محب زجاج باب محله، أحضر نوعاً غريباً من الزجاج، لم يره أحد من قبل فى البندر ولا فى البنادر المجاورة، قال إن ثمنه غال، قريب من أسعار الذهب، يمكن المقدس محب من رؤية من هو خارج المحل، ولكن الذى من الخارج لا يرى من بالداخل أبداً، ولا حتى بأحدث نوع من النظارات المعظمة». (المصدر نفسه: ١٧٦)

## النتيجة

تتيح الرواية بسماتها المتميزة والمتعددة الفرصة للكاتب لتشريح المجتمع بشكل أفضل وتسلط الضوء على بعض الظواهر والقضايا الاجتماعية، ولقد استغل "يوسف القعيد" سمات الرواية للكشف عن ظاهرة العنف فى صعيد مصر ووضح من خلال الرواية أهم عوامل انتشار العنف فى صعيد مصر فى فترة السبعينيات التى تتمثل فى ست نقاط أساسية، هى: تهيمش الدولة للصعيد وأهله وثانيها انتشار السلاح بكثرة فى صعيد مصر وثالثها السياسات العامة للدولة وتوجهاتها السياسية التى تنعكس بشكل مباشر وغير مباشر على واقع الصعيد ورابعها الحالة الاقتصادية الصعبة التى يعيشها أهل الصعيد، خامسها العادات والتقاليد السيئة التى يتمسك بها أهل الصعيد وآخرها عزلة الصعيد عن الشمال والاحتكاك مع الغير لإحداث فارق حضارى، كما أن الرواية

عكست صور العنف في ثلاث صور أساسية جميعها مرتبط ومتلاحم بعضها مع بعض؛ كأنها دائرة من العنف كل جزء منها يؤدي إلى الأخرى، أولها الإرهاب الذي استغل عزلة الصعيد وفقر الأوضاع وكثرة السلاح والتهميش الثقافي لأهل الصعيد في تثبيت جذوره لفترات طويلة داخل الصعيد وهذا النوع من العنف استغل أيضا البعد الديني لأهل الصعيد في انتشاره، والصورة الثانية وهي الثأر والذي يقوم في الأساس على فكرة القبلية المنتشرة في صعيد مصر حتى الآن فهذه الصورة من صور العنف ترتبط بالعادات والتقاليد بشكل أساسي، أما الصورة الأخيرة في الفتنة الطائفية التي وصلت إلى ذروتها في فترة السبعينيات ويرى يوسف القعيد أن السبب الرئيس في ذلك هو تعامل الدولة مع القضية والسبب الثاني هو انتشار التطرف الديني المرتبط بالفكر الإسلامي المتشدد الذي انتشر في تلك المرحلة في صعيد مصر.

### المصادر والمراجع

الأسود، السيد. (٢٠١٣). الدين والتصور الشعبي للكون (سيناريو الظاهر والباطن في المجتمع القروي المصري). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حسن، زينب هادي وربهام جلال ستار. (٢٠١٦). «أشكال العنف وصوره في أدب نوال السعداوي». مجلة كلية التربية الإسلامية. المجلد ٢٢. العدد ٩٦. صص ٩٢-٦٥

حسيني اجداد، سيداسماعيل وشهرام دلشاد. (١٣٩٦). «بررسی موتیف "ارض" در رمان "الحرب في بر مصر" از يوسف القعيد (دراسة موتيف الأرض في رواية الحرب في برّ مصر ليوسف قعيد)». مجلة نقد ادب معاصر عربي. دوره ٧. شماره ١٣. پیاپی ١٥. صص ١٩٥-١٧٥

زحاف، أمال. (٢٠١٦). تجليات العنف في رواية "سيدة المقام" لواسيني الأعرج، دراسة ظاهراتية موضوعاتية. رسالة ماجستير. الجزائر: جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي.

الشوابكة، سمية. (٢٠١٣). «الميتاقص تجريباً روائياً - قراءة في أعمال الروائي المصري يوسف القعيد: الحرب في برّ مصر ويحدث في مصر الآن وثلاثية شكاوي المصري الفصيح». مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية). المجلد ٢٧ (٣). صص ٦٦٦-٦٣٩

طه، فرج عبدالقادر، والآخرون. (١٩٩٣). موسوعة علم النفس والتحليل النفسي. الكويت: دارسعاد الصباح.

عامر، عادل. (٢٠١٤). تاريخ الإرهاب في مصر. موقع ديوان العرب

- عبدى، صلاح الدين. (٢٠١٩). «دراسة صور العنف السياسى فى روايات نجيب الكيلانى رواية ليالى تركستان نموذجاً». مجلة دراسات الأدب الإسلامى. المجلد ١. العدد ١. صص ٨٠-٥٧
- عزالدين، خالد. (٢٠١٠). السلوك العدوانى عند الأطفال. عمان: دار أسامة.
- العزى، سعاد عبدالله. (٢٠١٠). صور العنف فى الرواية الجزائرية المعاصرة. الكويت: دار الفراشة.
- فرهنگ، نسيم. (١٣٩٣). ترجمه و نقد و بررسى داستان قطار الصعيد اثر يوسف القعيد. رسالة ماجستير غير منشورة. طهران: جامعة آزاد الإسلامية.
- القعيد، يوسف. (٢٠٠٩). قطار الصعيد. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب/ دار الشروق.
- مرتاض، عبدالملك. (١٩٩٨م). فى نظرية الرواية (بحث فى تقنيات السرد). الكويت: عالم المعرفة.
- نسيمة، مسيلتى. (٢٠١٢). صور العنف السياسى فى الرواية الجزائرية المعاصرة، "مناهاة ليل الفتنة لـ أحمد عياشى و"دم الغزال" لـ مرزاق بقطاش" أنموذجاً. رسالة ماجستير. الجزائر: المدرسة العليا للأساتذة فى الآداب والعلوم الإنسانية.
- ويتمر، باربرا. (٢٠٠٧). الأنماط الثقافية للعنف، ترجمة: ممدوح يوسف عمران، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب.